

# نهضة المرأة العربية

للدكتورة درية شفيق

لم تعرف للمرأة العربية قبل الإسلام نهضة ما ، ذلك أن الإسلام الذي يعيرون عليه تسامحه في تعدد الزوجات قد جاء للحد من هذا التعدد الذي كان مطلقاً لا قيود له ولا حدود، فرأى أن يحد منه ويقصره في حالة الضرورة القصوى على أربع زوجات على الأكثر ثم شرط لذلك شروطاً انتفت معها رغبة الراغبين في الزواج بأكثر من واحدة .

وإذا كان الإسلام في هذه الناحية قد أباح الزواج من أربع لضرورة اجتماعية فإن مجتمعنا الحالي لم يعد يحتمل أكثر من زوجة واحدة وقلما نجد إلا في ظروف خاصة مسلماً يبنى بأكثر من زوجة نظراً للحياة الدقيقة التي نعيشها وللأوضاع الاقتصادية التي تحول دون الإسراف في هذا الحق المشروط ، وكان فضلاً من أن الإسلام وضع حداً لتعدد الزوجات فقد انتهى به الأمر أخيراً إلى الانصراف عنه .

وعاون الإسلام في نهضة المرأة العربية فرفع من مقامها بالقضاء على عادات وتقاليد أخرى قديمة أخصها عادة وأد البنات كما جعل الإسلام من بعض النساء خبيراً وحجة في الدين والحياة حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً عن السيدة عائشة ( خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ) ولم يقل النبي الكريم هذا القول إلا وهو مؤمن بأن السيدة عائشة رضي الله عنها على خلق ودين ، وأنها قميئة بأن تكون مثلاً يؤتم به ويؤخذ عنه ، فقد وضع رسول الله ثقته في سيدة وفي ذلك نصر لكل سيدة تعرف واجبها ودينها ، ومن أعظم مزايا الإسلام التي أرست قواعد النهضة النسائية للمرأة العربية أنه شرع القوانين التي تحمي المرأة في دنياها وتكون شخصيتها المعنوية فأصبح لها حق الزواج وحق الطلاق ،

ونصيب في الإرث وحق في التعلم وحرية الحياة وكانت من قبل كتماً مهملاً لا يعنى به .

ومن ظواهر نهضة المرأة العربية أن الشريعة الإسلامية السمحة كفلت لها من الحقوق وأنشأت لها من أنواع السياجات والحمايات ما لم تكفله لزميلتها الغربية شريعة أخرى ، ولسنا هنا بسبيل تعداد هذه التشرييع واستعراض حقوق المرأة ومكانها فيها ولكننا نتناول مكان المرأة من التشريع الإسلامي ومكانها من القانون المدني الفرنسي من ناحية هي فصل الخطاب في تطور نهضة المرأة العربية ؛ هذه الناحية هي أهلية كل من الزوجة المسلمة والزوجة الفرنسية في التصرف في مالها الخاص وإبرام ما يقتضيه ذلك من العقود والمعاملات ، فأما الشريعة الإسلامية فقد كفلت للزوجة حقها في ذلك مطلقاً من كل قيد فهي تستطيع أن تبيع من مالها أو تشتري من مالها ويقع كل ما تجريه في ذلك من التصرفات سليماً يقره القانون ولا مطعن عليه إلا فيما يتصل بذلك من أحكام القانون العام فهي من هذه الناحية تقف مع الرجل على قدم المساواة لا يسبقها ولا يتقدم عليها . أما الزوجة الفرنسية فأنها تفقد بالزواج جدارتها لإجراء هذه التصرفات إذ أن ما تقدم عليه منها لا يقع صحیحاً إلا إذا أقره زوجها ، فالزواج يحد من أهلية المرأة الفرنسية ويجعل للزوج فيما يتعلق بطائفة من تصرفاتها نوعاً من الوصاية عليها ، لعلها من حيث الكنه والجوهر لا تختلف عن تلك الوصاية التي شرعها القانون لحماية ناقص الأهلية أو عديمها .

\*\*\*

وإذن فهذه المرأة العربية يرجع تاريخها إلى بزوغ فجر الإسلام وكان من المنتظر بعد أن نشرت هذه الشريعة ألويتها وأعلامها على البلاد العربية أن تمضي النهضة النسائية في الشرق العربي قدماً نحو النضج والاستواء ، ولكن عوامل مصطنعة حالت دون تفسير السباحة التي انطوى عليها الدين الكريم ، فوقفت عصور الجهالة دون تقدم تلك النهضة وحالت بالعنف والشدة دون بلوغ المرأة العربية مكانها الصحيح من الحياة العامة والخاصة وأصبحت المرأة نزيلة الحرم لا تعرف من أمرها شيئاً .

ثم يضمنى محمد على الكبير على مصر والشرق العربى لوناً جديداً من الحياة فينشئ بين مدارسه مدرسة للبنات كانت طالباتها من المصريات والسودانيات والحبشيات .

ولأول مرة بعد عدة قرون تنظم جماعة من النساء لتلقى الدروس الدينية والمدنية على السواء .

ثم يقبل عصر اسماعيل فاذا النهضة النسائية تأخذ مكانها بين النشاط الذى دب فى أوصال الحياة المصرية وإذا مدارس البنات تتعدد وينافس فى إنشائها زوجات الخديو ، ويرعى الأمير بنفسه هذه النهضة حتى تتعلم فتيات مصر وينشأ جيل من الزوجات الصالحات العارفات أقدارهن وكان فى ظن الخديو أن هذه النهضة من شأنها أن تعاون على خلق جيل جديد من النساء ينشئ الرجال التنشئة الصحيحة المفيدة .

وقد رَقِيَت الحياة فى عهد اسماعيل فشهدت قصوره تطوراً فى النظم الاجتماعية لم يعرف فى مصر الحديثة ؛ شهدت قصوره الحفلات الكبيرة الرائعة وشهد عصره أذواق الملابس الجديدة حتى ألوان الطعام تنوعت ودخل فيها جديد وقد حدثتنا الوثائق المكتشفة أخيراً أنه اشترك لزوجاته وسيدات قصوره فى سبع محلات للأزياء فكانت نماذج الأزياء فى مصر والشرق العربى تخرج من قصوره وهذه العناية بشئون الناس وإن كانت خاصة إلا أن وراءها قلباً كبيراً يعرف للمرأة حقها ، ونوايا طيبة بدا أثرها على مر الزمن .

والنهضة النسائية فى عصر اسماعيل لم تأت من فوق ان صحح التعبير أى لم تكن من اسماعيل وحده بل رأى وجوبها بعض ذوى رأى من المصريين وفى مقدمتهم رفاعه رافع الطهطاوى وهو فلاح أصيل نشأ فى مدينة من مدن الصعيد ثم درس فى الأزهر وثقف فى فرنسا وكان حجة فى كثير من العلوم والمعارف وأستاذاً من أساتذة الصحافة فى الشرق العربى إذ كان محرراً للوقائع المصرية ومشرفاً على تحرير ( روضة المدارس ) . وقد ساهم هذا الرجل فى تطور النهضة النسائية العربية بما بثه من أفكار وبما نشره من كتب عن تعليم البنات وتوجيهها .

وإذا نحن أسرفنا قليلا في التحدث عن النهضة النسائية المصرية فإننا نتحدث عن مرآة صادقة للنشاط النسائي في الشرق العربي كله .

ويجدر بنا ونحن نعدد نهضة المرأة العربية أن نذكر فضل أصحاب الفضل على هذه النهضة فقد مضت حياة المصريات منذ أواخر عهد اسماعيل إلى نهاية القرن التاسع عشر رتيبة لا حياة فيها حتى وجد أنصار للمرأة من خاصة المثقفين المصريين وفي مقدمتهم قاسم أمين وانه لحديث معاد إذا نحن فصلنا في الجهد الذي بذله قاسم لتحقيق الهدف السامي ، هدف نهضة المرأة العربية عامة والمصرية خاصة وقد وضع الرجل عدة كتب ونشر كثيراً من المقالات يدعو فيها إلى تعليم المرأة وتحريرها وقد بسط في كتاباته وجوه الإصلاح وما ينبغي إجراؤه لتيسير هذا الإصلاح وتحقيقه وذلك بأن تحصل المرأة على قسط أساسي من التعليم كي تقوم بمهمتها قياماً مرضياً فان التعليم كما يقول يجعلها قادرة على تنظيم بيتها وميزانيتها وتربية أولادها كما أنه يكون دعامة من دعائم الوفاق بينها وبين زوجها فالرجل المتعلم لا يمكن أن يشعر بسعادة صحيحة إلا مع امرأة يرتفع مستوى ثقافتها إلى مستوى قريب من مستواه ثم تناول مسألة الحجاب والحريم فهدم وجهة النظر القائلة بهما وبين أن روح الإسلام يتطلب ابعاد ما يقترن بهذا الدين الخفيف من التقاليد الاجتماعية التي تحول دون الوصول إلى معناه الحقيقي ، وقد كان الحيل يعتقد أن الحجاب من مقتضيات الدين والدين براء من ذلك ، فالحجاب ضد التعاليم الدينية لأنه يحرم المرأة من العلم ، والعلم واجب على كل مسلمة ومسلمة . ثم كان الحجاب عدواً لحرية المرأة ، والحرية أول شرط من شروط الشرف فتجريد المرأة من الحرية يعادل تجريدها مما لها من قيمة انسانية ومعنوية

وما كاد قاسم أمين يظهر في هذا الميدان حتى بدا في الأوساط المصرية تياران مختلفان في الآراء ، احدها يؤيده والآخريناهضه ، وكانت الأغلبية الساحقة لا تميل إلى تحرير المرأة وذلك طبيعي في جيل اعتاد رجاله أن يروا في المرأة متاعاً أو حيواناً أليفاً يسهل قياده ، لذلك حاربوا فكرة قاسم أمين الذي يطالب بالحد من اختصاصهم ويدعو إلى سلب سيطرتهم ويرفع المرأة إلى جانبهم .

ومنذ بدأت المعركة بين قاسم أمين وخصومه والمرأة تنال حقاً بعد حق

حتى أنه في عشرين سنة تقريباً من جهاد أنصار المرأة أفلحت المرأة المصرية في أن تنتقل من دائرة الحریم إلى دائرة المحاماة ، وانتقلت من حياة تكاد تخلو من الحياة إلى المطالبة بالحقوق البرلمانية ، أنها بخطوة كبيرة انتقلت لا في مصر وحدها بل في الشرق العربي كله من الجهل التام إلى النجاح الباهر في الدراسة ، ومن البيوت المغلقة إلى وسط المجتمع الصاحب ، ومع أن الخطوات التي قطعها المرأة في سبيل نهضتها خطوات عظيمة إلا أن الملاحظ على المرأة العربية بوجه عام أنها تحتفظ تماماً بشخصيتها وأنوثتها في معمعان الحياة العامة .

ولا يمكن ونحن نتحدث عن نهضة المرأة العربية أن ننسى السيدة هدى شعراوي التي أخذت بشخصيتها القوية ترشد نساء الشرق العربي إلى الطريق القويمة وطفقت تعمل في جد وجلد على إزالة الحواجز والتغلب على العقبات غير مكرثة بما تسمعه من ذم ونقد ولم يقيم في سبيلها عائق يحول دون بلوغ غايتها وقد كانت تمثل المرأة العربية عامة والمصرية خاصة ولم تحجم عن بذل أي مجهود أو تضحية للوصول إلى الهدف الرائع الذي وضعت نصب عينها . وقد أنشأت لذلك اتحاداً كافح في سبيل تقدم المرأة وانتزع ثقة الرجال فيها انتزاعاً . فاذن للبنات بالالتحاق في الجامعة وكان ذلك نصراً عظيماً للمرأة في مصر ، ومضت تساهم هدى شعراوي في النشاط الدولي النسائي ولم تكن في الحقيقة تمثل في الهيئات الدولية النشاط النسوي المصري وحده بل كانت تمثل نشاط الشرق العربي في هذه الناحية وبذلك أصبح للاتحاد النسائي طابع وطني وطابع دولي . وقد تكلمت هدى هانم شعراوي في أكثر من عشرة مؤتمرات تدافع عن حقوق المرأة العربية مبينة بالدليل المادى استعدادها ونجاحها وتفوقها .

وليس في مقدورى وأنا أروى صورة نهضة المرأة العربية أن أتعب التطورات التي أصابت تلك النهضة في البلاد العربية بلداً بعد بلد فان المعروف أن الهيئات النسائية المصرية تضم بين أعضائها أعضاء من البلاد العربية يقمن في بلادهن بما تقوم به الهيئات المصرية حذوك الرأس بالرأس ويختلف مدى النجاح في تلك البلاد ، ولكن هناك أشياء نجحت فيها المرأة العربية في كل مكان فثلاثتال المرأة العربية حق التعليم بلا قيد ولا شرط في معظم الممالك والجمهوريات

العربية ، وتنسوى المرأة والرجل في معظم الوظائف العامة . وقد نجحت المرأة السورية خاصة في بلوغ الحق السياسي فأصبح لها أن تبدى رأياً في الانتخابات العامة وتختار المرشحين لمجلس النواب كالرجل تماماً ، وكذلك في لبنان .

وفي مصر اليوم حكومة أعلن رئيسها في صيف عام ١٩٤٩ من برنامجها منح النساء حق الانتخاب ، ولا تقصد المرأة العربية بمطالبها بحقوقها السياسي التدخل في الأمور السياسية أو الحزبية وإنما تطالب بذلك لتستطيع الاشتراك في التشريع والتنفيذ وخاصة ما كان متعلقاً منها بشؤون المرأة والطفل .

وإذا أمعنا النظر في نهضة المرأة العربية نجد أنها ليست طبلاً كما يزعم الزاعمون فإن الأجيال الناشئة الآن من تكوين أمهات تعلمن أو تثقفن ، وإن حياتنا الاجتماعية التي خلت إلى حد بعيد من الدجل والخرافات مصدرها أن مستوى المرأة الفكرى في البلاد العربية قد ارتفع وأن تلك المؤسسات الضخمة لرعاية الأطفال أو رعاية المرضى أو العجزة في البلاد العربية جميعاً تكاد تكون كلها من صنع المرأة وحدها . وإذا رجعنا إلى حالة البلاد العربية منذ خمسين سنة لا نجد هذه الإنسانية المتغلغلة في نفوس الناس ذلك لأن المرأة كانت محرومة من المساهمة في الأعمال العامة متروكة وراء الحدران تقضى أيامها في تافه القول والعمل واليوم نجد الطبيبات في الريف والمدن يساهمن مساهمة فعالة في كفاح الأمراض وكان ذلك أمراً عسيراً مع الرجال سواء منهم الجهلاء أو المتعلمون فإن الطيبة تستقبل في كل بيت وقلما كان هناك بيت يقبل زيارة الطبيب لمعالجة نسائه وبناته واليوم في كل قرية ومدينة أكثر من مدرسة ومؤسسة اجتماعية تنافس المرأة الرجل في خدمتها ورعايتها واليوم لا تكاد تخلو صحيفة من النساء العاملات فيها ولا تكاد تخلو مكتبة من كتاب مؤلفته امرأة ولا تكاد تخلو محكمة من محامية تدافع عن العدل وتنافح في سبيل الحقيقة .

وإذن فهذه المرأة العربية ليست حراً على ورق وليست حديثاً معاداً بل هي حقيقة واقعة لا ينكر فضلها وينبغي أن تذكر مآثرها . وإذا كان هناك أحد في شك من هذه النهضة فليُنظر إلى بيته فسوف يجد إلى جانبه زوجاً وابنة مساويات له في النظر إلى الحياة وهذا وحده لم يكن معروفاً منذ خمسين سنة حين كانت المرأة أو البنت معطلة عن العلم خلواً من كل تفكير سليم .

د. ربة شفيق